

«كبرلة» القديمة و العرب

للاستاذ أبو الصلاح

كانت «كبرلة» في العصور القديمة تمتد من «رأس كاري» جنوباً إلى «كوكرنم» شمالاً، و من سلسلة جبال «پسچم كڈم» شرقاً إلى بحر العرب غرباً. كان العرب ينعنون بقولهم «ملييار» تلك البلاد المتسعة السالفة الذكر.

يصف «كبرلة» القديمة المؤرخ السامح ابن بطوطة الذي أقام أثناء زيارته «كبرلة» في بلاد المعبر و سيلان و جزائر «محل ديب» ثلاث سنين يقول «وصلنا إلى بلاد الملييار وهي بلاد الفلفل و طولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من «سندابور» إلى «كولم».. و شوارعها بين ظلال الأشجار، و في كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يتزدهر عليها كل وارد و صادر، و عند كل بيت من تلك البيوت بُرِيشرب منها، وهذه الطرق التي ذكرنا أنها مسيرة شهرين ليس فيها موضع شبر دون عمارة، و كل إنسان بستانه على حدة و داره في وسطه، و على الجميع حائط خشب، و الطريق تمر في البساتين، فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها، و درج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر. هكذا مسيرة الشهرين، ولا يسافر أحد في تلك البلاد على دابة، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان، و أكثر ركوب أهلها في «دولة» على رقاب العبيد أو المستأجرين، و من لم يركب في «دولة» مشى على قدميه، و من كان له رحل أو متاع من تجارة وغيرها أكثرى رجالاً يحملونه على

(١) رحلة ابن بطوطة (٢) السامح استصعب المسافة فبالغ في

التقدير - محرو.

١
٢

ظهورهم ، فترى هنالك التاجر و معه حوالى مائة عامل فما دونهم أو فوقهم يحملون أمتعتهم و يبد كل واحد منهم عود غليظ له زج من حديد و فى أعلاها مخطاف حديد ، فاذا أعبى ولم يجد دكاثة يستريح عليها ، ركز عوده بالأرض و علق حمله عليه ، فاذا استراح حمله من غير معين و مضى ، و يصف أيضا أهل كيرلة ، بقوله « وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة . فاذا سقط شئ من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه ، و إذا نزل المسلم ديارهم أضافوه و طبخوا له الطعام و صبوه له فى أوراق الموز و صبوا عليه الأدام ، ولقد كنا نرى غير المسلمين فى هذه الطريق ، فاذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز ، و المسلمين أعز الناس عندهم غير أنهم لا يواكلونهم » -

وصلات الصداقة بين العرب و كيرلة قديمة حتى لم يستطع باحث ولا مؤرخ على اخراج تلك الصلات المرقومة ، و يذكر غير واحد أن الرابطة بين العرب و بلاد كيرلة بدأت قبل قرن النبى سليمان عليه السلام ، وكان يستورد منها الذهب و الفضة و العاج و القروود و الطواويس و غيرها ، و على كل حال إن العرب أخذوا يقدمون على كيرلة منذ أقدم العصور بنتائج بلادهم مثل التمر و العنب و غيرها و ينقلون منها حاصلاتها مثل الفلفل و الهيل و العاج و إن العرب تطرقوا إلى كيرلة منذ تاريخ السفن الشراعية و افتتاح الرحلة البحرية . يقول « رولندسن » ان المسلمين العرب بادى بدء استقروا فى ساحل مليبار فى أواخر القرن السابع ، و يؤيد هذا القول « فرانسيس دى » بالروايات المتواترة ، و كذلك يدعمها « استروك » ، فيما كتبه عن « مويلا » قائلا « مما هو

معلوم أن التجار الفرس والعرب استقروا من القرن السابع وقبله بعدد كبير على السواحل الغربية من الهند متفرقين بأماكن مختلفة ، تزوجوا من النساء المواطنات ، وكانت جالياتهم في مليبار خاصة كبيرة وهامة . ويظهر أن الحكومات المحلية كانت من زمن بعيد تعطف عطفًا كبيرًا على هؤلاء التجار في الموانئ وتعاملهم معاملة حسنة .

كان التجار العرب قبل الاسلام الذين اعتقدوا دين اليهود والنصارى يثون تعاليمهما في ساحل كيرة ، فلما اعتنقوا الاسلام أضحوا يفتدون اليها حاملين تعاليم الدين الخفيف ويبلغونها إلى أهل كيرة ويحثونهم على أن يعتنقوها ولم يمنعهم عن هذا التبليغ المقدس تجارتهم ولاصفتهم في أسواق كيرة ، ويتهزون كل فرصة تسنح لهذه الخدمات الجليلة الدينية الانسانية ، وبقيامهم بهذه الخدمات الطيبة وجد في «الهند الصينية» و «الملايو» وجزائر «لكش» انتشار كبير وقبول حسن عام لتعاليمه لدى سكانها .

ما فتئت التجارة البحرية والرحلة في السفن الشراعية مخصوصة بالعرب في الزمان الأقدم ، وكان الابحار صعبا جدا بدون إذنتهم ومساعدتهم ، وكانوا يساعدون غيرهم من هذه الناحية أيضا ، فلما تيقظ الغرب وتقفوا وعظمت قوتهم من الناحية البرية والناحية البحرية وجد العرب بعض المتاعب في الرحلة البحرية لوقوع المنافسة بينهم وبين الغربيين في لج البحر ، فأصبحت صلاتهم بكيرة تضعف شيئا قليلا ، لكن بعد ما حظيت الهند بالاستقلال التام من نير الاستعمار الغاشم أضحت تلك الصلات الودية هذه الرابطة السعيدة جزءا لا يتجزأ للهند و بلاد



﴿ مبدأ ظهور الاسلام بكبرله ﴾

و كما ثبتت الصلات القديمة بين كبرلة و بين بلاد العرب واقعة اسلام « سامودرى » او « شيرمان بيرمال » ملك ملبار ، وهى أنه شاهد انشقاق القمر و استخبر عن ذلك فلم من العرب المسافرين أن ذلك الانشقاق وقع معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم الذى بعث نبيا فى العرب فاعتنق الاسلام و خرج إلى مكة لزيارة النبي و الوقوف على أمور الاسلام ، يقال أن هذه الواقعة جرت بعد عصر النبي صلعم .

يقول صاحب تحفة المجاهدين « إن جمعا من اليهود و النصارى دخلوا بلدة من بلاد مليار يقال لها « كدنفلور » التى هى مقر ملكها ، جاؤوا إليها فى مركب كبير بأهلهم و عيالهم و طلبوا من أهل البلدة الأراضى و البساتين و البيوت فأعطوها إياهم فتوطنوا فيها ، و بعد ذلك بسنين وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين و معهم شيخ قاصدين زيارة قدم أينا آدم عليه السلام سيلان فلما سمع الملك بوصولهم استقدمهم و أضافهم و استخبرهم فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد و بدين الاسلام و بمعجزة انشقاق القمر فأدخل الله سبحانه فى قلبه صدق النبي فأمن به و تمكن فى قلبه حب النبي صلعم و طلب من الشيخ و أصحابه أن يرجعوا إليه بعد زيارة قدم آدم ليخرج هو معهم ، و أن يكتبوا هذا الحديث عن المليارين ، و بعد ذلك سافروا إلى سيلان و رجعوا إليه فأشار الملك على الشيخ بأن يهيب مركبا للسفر من غير أن يحس بذلك أحد ، وكان فى المرفأ مراكب كثيرة للتجار الغرباء فطلب الشيخ من صاحب مركب أن يئنه هو و رفاقه إلى مقصدم فرضى بذلك صاحب الملك و عند قرب وقت السفر هيب الملك أهل بيته و وزراءه أن يدخل

أحد منهم عليه مدة سبعة أيام، و عين في كل بلدة من بلدان مملكته شخصا و كتب لكل كتابا مفصلا بتعيين الحدود حتى لا يتجاوز أحد عن حده الذي عينه، وهذه الواقعة مشهورة عند غير المسلمين من أهل كيرلة أيضا، وكان ملكا في جميع بقاع مليبار، و حد مملكته جنوبا «رأس كمارى» و شمالا «كانجركون»..

ثم ركب الملك و الشيخ و رفقاه في المركب ليلا و جرى المركب حتى وصل إلى فندرينة (فندلاتنى) فنزل فيها و لبث يوما و ليلة، و منها جرى المركب إلى «درمفتن» (ودكرا) و نزل فيها و لبث ثلاثة أيام، ثم فاسروا منها حتى وصلوا ثغر «شهر» و نزلوا فيها، و بعد مدة طويلة رافقه جماعة في السفر إلى مليبار لعمارة المساجد و إظهار دين الاسلام فيها، ففي الطريق مرض الملك و اشتد مرضه فوصى أصحابه الذين رافقوه، و هم شرف بن مالك و أخوه من الأم مالك بن دينار و ابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك و غيرهم بأن لا يطلوا سفر الهند بعد موته، فقالوا لا نعرف موضعك ولا حد ولايتك، و انما كنا أردنا السفر معك، فتفكر الملك ساعة و كتب لهم كتابا بخط مليبار يوصى فيه بما يجب أن تكون عليه حكومة بلاده و بالترحيب لهؤلاء المسلمين القادمين، و أمرهم أن ينزلوا في «كدنغلور» أو «درمفتن» أو «فندرينة» أو «كولم» و قال لهم لا تخبروا بشدة مرضى ولا بموتى، إن مت، أحدا من أهل مليبار، ثم توفى رحمه الله. و بعد ذلك بسنين سافر شرف بن مالك و مالك بن دينار و مالك بن حبيب و زوجته قرية، و غيرهم مع الأولاد و الأتباع إلى مليبار، فوصل مركبهم إلى كدنغلور، و نزلوا فيها، و أعطوا كتاب الملك المتوفى إلى الملك

الذي فيها اذ ذاك و أضربوا خبر وفاته ، فلما قرأه الملك و أحس بمضمونه ،
طاملم هو وقومه أحسن معاملة و أعطام الأراضى و البساتين على مقتضى
كتاب الفقيد المرحوم ، و أذن لهم ببناء المساجد فبنوا فى كدنگلور مسجدا
و عمروه و توطن فيها مالك بن دينار ، وولى ابن أخيه ابن مالك بن
حبيب القيام ببناء المساجد فى بقاع مليار ، فخرج مالك بن حبيب إلى
كولم ، بماله و أهله و عمر بها مسجدا ، ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته
فيها إلى دهلى مالا ، و عمر بها مسجدا ، ثم إلى دباكتور ، و عمر بها
مسجدا ، ثم رجع منها إلى منجلور ، و بعد أن عمر بها مسجدا خرج إلى
كانجركوت ، (كاسركوت) و عمر هناك أيضا مسجدا و بعد ذلك خرج إلى
دهلى مالا ، و أقام بها ثلاثة أشهر ، و منها إلى جرقن ، و منها إلى
شالبات ، و بنى فى كل منها مسجدا حتى بنى أحد عشر مسجدا فى أحد عشر
مكانا ، و أخيرا رجع إلى كدنگلور و أقام عند عمه مالك بن دينار ، ثم
سافر منها إلى المساجد المذكورة و صلى فى كل مسجد منها و رجع إلى
كدنگلور شاكرًا لله بظهور دينه الاسلام فى أرض مليشة بالكفر و الفجور -

ثم خرج مالك بن دينار و مالك بن حبيب مع الأصحاب و العبيد
إلى كولم ، و توطنوا فيها إلا أن مالك بن دينار و بعض أصحابه سافروا
إلى شهر ، و زار قبر الملك المتوفى فيها ، ثم سافر مالك إلى خراسان
و توفى فيها هو و زوجته ، هذه بداية وصول دعوة الاسلام فى ديار
مليار ، و أما تاريخه فلم يتحقق عندنا و أغلب الظن أنه كان بعد المائتين
من الهجرة النبوية ، و أما ما اشتهر عند مسلمى مليار بأن اسلام الملك
الذكر كان فى زمن النبي صلعم برؤية الشفق القمر ، و أنه سافر إلى

النبي وتشرف ببلقائه ثم رجع إلى «شهر» قاصدا المليار مع رفقته ، فلا يكاد يصح شئ منها ، و المشهور بين الناس أنه مدفون في «ظفار» لا في «شهر» و قبره مشهور هنالك ، و يسمونه «السامرى» و خبر غيبة الملك المذكور مشهور عند جميع أهل مليار المسلمين وغيرهم إلا أن المسلمين يقولون بعروجه إلى السماء و يتوقعون نزوله ، لذلك كانوا يهينون في بقعة «بكد نغور» قبقابا و ماء و يسرجون فيها في ليلة معروفة عندهم ، و من المشهور عندهم أيضا أنه قسم ولاية عند قرب سفره على أصحابه إلا السامرى الذى كان أول رعاة «كاليكوت» فانه كان غائبا عند التقسيم ، فلما حضر أعطاه سيفا و قال له اضرب بهذا ، و تملك فعمل بمقتضى قوله ، فتملك «كاليكوت» بعد زمان ، و سكن فيها المسلمون و وصل إليها التجار و أصحاب الصناع من نواحى العالم حتى كبرت وصارت مدينة عظيمة ممتدة .

قال العلامة كرامة على الدهلوى « و فى رواية صحيحة أن السامرى رأى فى زمن رسول الله صلعم انشقاق القمر فأرسل الرسل فى ماله ليطلعوا على سبب هذه الواقعة فلما تحقق أن محمدا صلعم ادعى النبوة وقد انشق له القمر معجزة لنبوته ركب فى سفينة ووصل الحجاز و أدرك الصعبة ورجع وتوفى بظفار بالمرض المهلك وقبره هناك .»

ربما تكون هذه الرواية أقرب إلى الصواب لأنه يتوسط بين الرواية السابقة و بين ما اشتهر عند مسلمى مليار فى تعيين موضع وفاته وزيارة النبي صلعم . و يؤيد هذه الرواية ما ذكره الشيخ القاضى عبدالعزيز الكاليكوتى المليارى (١٦١٦ م) فى قصيدته المشهورة « فتح المبين » إن السامرى استطاع

على غزوه للأفرنج بسر دعا. النبي صلعم لخاله السامري حين اعتنق الإسلام
و زار النبي الكريم و حظى بالصحة الميمونة و مات في ظفار مقفلا إلى
كبره يقول الشيخ :

وإنما وفق هذا السامري
للحرب معه بين كل كافر

بسر دعوة النبي المطهر
لخاله يوم انشقاق القمر

لما رأى انشقاقه من بلده
سافر خفية إلى زيارته
حتى أتى إلى النبي و آمن
بأنه و النبي نصار مؤمن

وفي رجوعه إلى مليبار
يجرى الإسلام في تلك الديار

أصابه الموت من الظفار
كذا أتى في أشهر الأخبار

يقول الشيخ محمد الكبير الدناجوري الهندي في كتابه "تذكرة الكرام
من تاريخ العرب والإسلام"، إن الخليفة عثمان بن عفان بعث إلى الهند
وفدا في قيادة مغيرة بن شعبه عام ٢٧ هـ فوصلوا إلى كاليكوت من مليبار
فأكرمهم السامري ملك مليبار واستخبرهم عن النبي وعن انشقاق القمر الذي
وآه فلما وجد أحاديثهم عن الانشقاق توافق ما رآه. دخل هو وأهل البلد

(١) رجل جالية العرب في نظم جالية الكرب، لاسم كوي العالياني

في الاسلام ، الاظهر أن هذه الواقعة غير الأولى ، وما يشير اليه بعض المؤرخين من ذكر واقعة إسلام سامرى بعد مائتى سنة هجرية واقعة ثالثة ولا بد ينتظم التواريخ الواردة في هذه القضية انتظاما صحيحا .

وكانت من جملة الهدايا التي بعثت إلى الكعبة من كيرلة سنة ٩٥٢ هـ الموافق لعام ٨٧٢ م قلادة كريمة متأنقة مرصعة بالياقوت والزمرد ، أمر الخليفة العباسى المعتمد على الله أن تعلق هذه القلادة المتلألئة على الكعبة الشريفة ، وبناء على عدم الوقوف على أن ملكا غير كيرلى أسلم وأرسل إلى الكعبة المكرمة هدايا قيمة تقول إن صاحب الهدايا هذه هو ملك من ملوك كيرلة الذى اعتنق الاسلام -

تذكار الملوك

ولا يخفى ما كان لاسلام الملك المذكور من تأثير عميق في رعاياه . وتذكر هذا الحادث لا يزال حيا خالدا في كيرلة ، فثلا جرت التقاليد أن سامودرى ملك مليار عندما يعتلى عرش الحكومة يحلقون رأسه ويكسونه كواحد من المسلمين ، ويتوجه رجل مسلم من « مابلا » ، وبعد حفلة التتويج يعاملون سامودرى كأنه مارق فلا يسيحون أن يجالس أو يؤاكل حتى أقاربه الأقربين وأهل بيته ، ويزعمون أن سامودرى ليس جلوسه على العرش إلا كئناثب عن الملك الغائب ، وهو ينتظر رجوع شيرمان يرمال من البلاد العربية (هذا على رأى أهل الخبرة من الهندوس) ، وكذلك أمراء تراونكور عندما يتوجون ويحملون السيف ، يعلن كل واحد منهم في دوره قائلا « إني حافظ على هذا السيف حتى يرجع العم الذى رخل إلى مكة ، ولكن يجب أن لانسى أن حكاية إسلام الملك

(١) «الإعلام باعلام بيت الله الحرام» (٢) Qadir Hussain Khan,

Logan Malabar (٣) South Indian Musalman, Madras Christian College

شيرمان بيرمال قامت على أساس أسطورة لاغير، فكثير من تفاصيلها تخوم حوله الشبهات -

والظاهر أن المسلمين في هذا العهد وصلوا إلى نفوذ كبير، فقد كانوا يلقبون بكلمة « مابلا ، معناها في لسان القوم «الطفل العزيز» أو «العروس» وهذا اللقب كما لا يخفى لقب احترام، وكان يلقب به بعض النصارى أيضا ولكن مع كلمة «النصراني» للتمييز عن المسلم فيقال « نصراني مابلا ، وخص المسلمون بمظاهر الأكرام الأخرى فكان للمسلم أن يجلس مع «نمبودرى» براهن، حينما «النائر» الهندوس لا يباح له ذلك. وكان للرئيس الدينى للمسلمين الملقب «بتنغال» أن يركب المحفة مع سامودرى وأمثاله ويسايرهم -

ثقفة سامودرى بالمسلمين

كان سامودرى يثق بالمسلمين ثقة عظيمة حتى إنه كان يرغب بنفسه الناس إلى اعتناق الإسلام. وذلك لتقوية أسطوله الذى كان فى أيدي المسلمين بل إنه اصدر امرا يحتم على كل أسرة من السماكين فى مملكته أن تربي واحدا أو اثنين من أولادها على الديانة الإسلامية -

وكان من أثر عطف سامودرى وحمائه أن كثر عدد التجار العرب فى مملكته وهم ساعدوه مساعدة عظيمة، ليس بتوفير ثروته وتعمير بلاده فحسب، بل وبنصره فى حروبه المتواصلة أيضا، وتقول الروايات إن تاجرا مسلما كان يتاجر مع البلاد العربية، أقام سوقا فى مكان يسمى «ويلابورم»، شاء القدر أن تكبر تلك السوق ويصير مكانها ثغرا عظيما وهى تسمى الآن «كاليكوت»، وأصبح التاجر قاضيا لهذه الجهة، ثم تناسل وكثرت ذريته،

وهؤلاء هم الذين حاربوا في جيش سامودرى عندما هاجم البلاد المجاورة «بالاند» و«ويلابورم»، ولم يستفد سامودرى بهذا الانتصار الحربي الهام من الناحية المادية، بل استفاد من الناحية الدينية إذ بالفتح العظيم انتقل إلى احتفال بعيد «مهاما كهم»، إلى يده فأصبح رئيسا دينيا في ملييار الجنوبي، وتقول رواية إن أسرة على راجا المسلمة التي كانت تزود أمراء البحر والوزراء لملوك «كولاترى»، أسسها رجل كريم من العرب الذين استقدمهم من بلادهم الملك شيرمال بيرمال. وتبدي رواية ثالثة أن جد الأسرة كان رجلا من فائر هندوسى أسلم إلا أنهم أبقوه وزيرا لدهانه ومواهبه الإدارية. يظهر من روايات المسلمين و الهندوس أن ملكا من نسل كولاترى ولي حكم «بلاقتن»، اعتنق الاسلام، يقولون عن سبب اسلامه إنه كانت هناك شجرة عجيبة أوراقها كلها خضراء إلا ورقة هي تصفر وتسقط فعجب الناس بذلك و اشتهر أمرها، وكان الناس يشدون رحالهم إلى زيارة تلك الشجرة العجيبة - ففى يوم خرج الملك لزيارتها، فشاهد الورقة الساقطة الوحيدة فأخذها فوجدها كتب عليها «الله واحد و محمد رسول الله» بالعربية فقرأها الملك العالم بالعربية فأسلم.

مدينة كاليكوت

و عبدالرزاق (١٤٤٢) الذى جاء إلى الهند قبل مقدم البرتغاليين يقول فى وصف «كاليكوت»، «هى مدينة كبيرة متمدة يوجد فيها عدد كبير من التجار من شتى نواحي العالم مثل الصين و الجند و الحبشة و فارس و جزيرة «محل»، و جزيرة «لنكا»، و سيلان وغيرها، و فيها عدد كبير من

المسلمين وهم من سكان البلدة، وقد بنوا فيها مسجدين باذن ملك كاليبوت يجتمعون فيهما كل جمعة للصلاة. و يجرى فيهما الاذان و الجماعة منظمة، و عين الملك للمسلمين قاضيا يحكم بينهم فيما يخصهم من أمور دينهم وكان أكرم اختاروا لمذهب الشافعي، و يسود الأمن في كل بقاعها حتى أن التجار يتركون أمتعتهم في السوق أينما شاؤا تحفظه الحكومة وتراعيها، وكان ثغر المدينة غير مثيل في النشاط التجارى وازدهام التجار من سائر أرجاء العالم.

فهذه التصريحات ناطقة بأن المسلمين سكنوا الساحل الغربى الهندى قديما و ازدادوا فيه عددا و ثروة ومنعة، وما قال سليمان الذى زار الهند فى القرن التاسع « إنه لم يربها المسلمين أو الناطقين بالعربية، فغير معتمد به لأنه لم يركز ذلك الممتلكات العربية فى السند أو غجرات وكذلك لم يرب أبناء وطنه يملكون تجارة واسعة، وهو كما قال « ريفود » كان همه الوحيد الوصول إلى الصين دون الالتفات إلى يمينه أو يساره و لذلك فاتته ملاحظة أحوال الساحل الهندى. إن الروايات المصونة فى معابد « كيرولوتى » و أساطير الأهالى المسلمين و المنحوتات وشهادة المؤرخين المسلمين و السياحين منهم واستمرار التجار العربية مع الهند من قديم الزمان كل ذلك يحملنا على اليقين بأن المسلمين ظهروا بالساحل الهندى بعد وفاة النبي صلعم، وسرعان ما وصلوا إلى مقام ممتاز و نفوذ كبير لدى ملكوك مليبار الهندوس، و هناك أخبار و روايات موثوقة تثبت الصلة الودية القديمة لكبيره مع البلاد العربية ولكما تركناها نظرا لضيق المقام.